في موكب الريادة..

عندما بدأ تنظير الشعر المتفلت من الوزن منتصف القرن الميلادي الماضي؛ اهتم بعض الدارسين برصد ميادينه، وشارك في الرصد شعراء كان لهم دور بارز فيه، أبرزهم شاعران تجاذبا الريادة، هما نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، كل يقرر أن قصيدة له سبقت الآخرين في فك إطار الوزن، وإطلاق العنان للتفعيلات كي تحكم وحدها إيقاع القصيدة.

د.عبد الباسط بدر - سورية

وما لبث أن طلع دارسون آخرون نقبوا في دواوين الشعراء قبل نازك وبدر، ووقفوا على قصائد مشابهة يعود بعضها إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، فقلدوها وسام الأسبقية، ومن ثم الريادة.

ولا شك أن جهود هؤلاء الراصدين له ما يسوغه عندهم، ولكن النتائج التي وصلوا إليها باعتقادي قاصرة، لا تحسن فهم طبيعة الريادة وشروطها، ولا تنتهي إلى صواب.

فالسبق الزمني على أهميته وقيمته- لا ينشئ وحده الريادة، والريادة سواء في معناها اللغوي أو الاصطلاحي تقتضي السير على أرض جديدة تحفظ خطوات صاحبها، وتجعلها طريقا معبدا لمن بعده، وتقتضي أن يبصر اللاحقون تلك الخطوات، ويضعوا أقدامهم عليها، مدركين أنهم يقتدون بالرائد، وأنهم ماضون إلى هدف صحيح.

أما مجرد السبق الزمني فقد يكون الكشف فقاعة تظهر ثم تنطفئ، وقد تعفي الرياح أثر الخطوة الأولى، فلا تعرف حتى يكشف عنها الآثاريون، وقد تكون مصادفة أو عبثية لا يدرك صاحبها أبعادها الحقيقية، ولا يدعو إليها الآخرين، ولا يأخذها منه أحد.

ولو جئنا نرصد الحالات الفقاعية في أي تراث أدبي أو فني، أو حتى علمي؛ فسنجد على امتداد الزمن ما يصعب حصره.

دارت بخاطري هذه المعاني وأنا أتأمل الإرث الأدبي الكبير لأستاذنا وأستاذ جمهرة من الأدباء والكتاب وأساتذة الجامعات الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا.

أقول: أستاذي! ولم تضمني مقاعد الدرس الذي كان يتألق فيه، ولكن جمعتني به لقاءات عدة في بيته، وفي بيوت عدد من الأصدقاء بمدينة الرياض، وفي بعض المجالس الثقافية والندوات، ومناقشة عدد قليل من الرسائل الجامعية التي أشرف عليها، ورأيت فيه ما يعده بحق أستاذا نتعلم منه الكثير، ورائدا من رواد الأدب الإسلامي في عصرنا الحديث، تجتمع فيه صفاتها وشروطها.

فعندما جئت الرياض قبل أربعة عقود تقريبا كان اسمه مدويا بين طلاب كلية اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- وكان ذكره بينهم يحاط بكثير من الهيبة والتقدير. وعندما لقيته أول مرة في مجلس ثقافي رأيت فيه ما أكد الصورة التي يتناقلها طلابه عنه: رأيت فيه شموخ جبل الأربعين في أريحا السورية، التي انحدر منها، وصلابة صخوره التي نشزت عنها أشجار الكرز والزيتون، وعندما تحدث عن مشروعه الذي كان ماضيا فيه.. مشروع جمع شعر الدعوة الإسلامية عبر العصور ودراسته؛ رأيت الكرز والزيتون يزحف إلى الصخور الصلدة، فيكسوها خضرة زاهية، يزداد بها شموخ جبل الأربعين، حتى تلف قمته سحابة معطاء.

كان الدكتور الباشا واعيا لأبعاد موضوعه، مدركا أنه يشق طريقا جديدة، سلاحه منهج واضح، وجنده طلبة متفوقون، درسوا قواعد البحث وأصول التوثيق، يرجعون إليه فيما يجمعونه، ويوثقونه ليسدد خطاهم، ويعمق مراسهم، ويحكم نتاجهم.

وكان هؤلاء هم القافلة الأولى التي تعبر الطريق خلفه، وكان يعرف أن ما سينتجه المشروع، سيكون طريقا معبدا لمن بعدهم، يقدم لهم المادة التي يقيمون عليه دراساتهم، ويستنبطون منها القواعد النقدية للأدب الإسلامي، ويواكبون مستجدات العصر في تنظير الأدب وتحديث النقد، ومخاطبة الجمهور المعاصر بما يناسبه.

ندوة العلماء بالهند حيث عقدت ندوة الأدب الإسلامي ١٤٠١هـ

ولا أنكر أني رأيت مع فصاحة بيانه، تراثية غالية خشيت أن تكون مغلقة الأبواب، متأخرة عن زمننا، تأبى الانفتاح على الآخر والتعامل معه!.

وكنت في دراستي بمرحلة الدكتوراه أعايش حركات التجديد في الشعر العربي ونقده، وأتتبع المؤثرات العالمية فيه. وكانت تجربة الشاعر توماس إليوت التي أثرت في

عدد من أوائل شعراء التفعيلة في العراق ولبنان ومصر، تشدني إليها، ليس برموزها النصرانية التي أثرت فيهم، بل بجناحين متكاملين هما: جناح التجديد في بناء القصيدة ودراميتها، وجناح القيم الإيمانية التي تدعو إلى بناء الإنسان الحديث عليها، رغم اختلافي الشديد معه في نوعية تلك القيم، وكنت أترقب ظهور شاعر عبقري في لغتنا العربية، قادر على التحليق بجناحين متناظرين: جناح التجديد الفني المبدع، وجناح القيم الإيمانية الإسلامية التي تبني الشخصية المعاصرة للفرد والمجتمع.

ورغم إيماني العميق بأهمية التراث جذورا لأدبنا وشخصيتنا، فإنني كنت أخشى من أن يعوق طغيانه الأديب عن مواكبة إنسان العصر الحديث؛ لذا كنت أشعر أني في حصن آخر غير الذي يتحصن به الدكتور الباشا، وكنت أخشى أن يصبح اتجاهه نقطة ضعف نبذل الجهد الجهيد في الدفاع عنها، وتثبيت أقدامنا في تنظير الأدب الإسلامي، وإحكام أسسه النقدية.

وشاء الله أن أنتقل من الرياض إلى المدينة المنورة سنة ١٤٠٠هـ؛ لأعمل في كلية اللغة العربية في الجامعة الإسلامية. وفيما كانت الأجزاء الأولى من مشروعه الكبير (شعر الدعوة الإسلامية) تصدر على التوالي، وقد استفدت منها فائدة كبيرة في عملي، وفي المشروع الذي تأثرت به؛ خطا الدكتور الباشا لإقرار منهج الأدب الإسلامي في الكلية.

وأذكر أنني عندما زرته بعد سنة من عملي في الكلية، وحدثته عن مشروعي نصحني بعدم الاستعجال، والتعمق في الموضوع، وإنضاجه ليكون قويا قادرا على مواجهة اعتراضات المعترضين. ولكن حماسة الشباب آنئذ جعلتني أتجاوز نصائحه، وأغذ الخطا في تنفيذ المشروع، أخذا بالأثر: إذا درت نياقك فاحتلبها!، خاصة بعد أن دعانا سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي إلى أول ندوة عالمية للأدب الإسلامي عقدت في لكنهو بالهند عام ١٤٠١هـ، وسافرت إليها بصحبة عميد كلية اللغة العربية وعضوين آخرين في فريق يمثل الجامعة الإسلامية، وكان من بين توصيات الندوة توصية بعقد ندوات مماثلة في الجامعات الإسلامية.

ونجح المسؤولون في جامعتنا في تنفيذها، وكانت مفاجأة للجميع أن تدعو في السنة التالية١٤٠٢هـ، إلى ندوة بعنوان: حوار حول الأدب الإسلامي ومنهجه. ولبى الدكتور الباشا الدعوة، وكان حضوره مع كوكبة من رجال الأدب والفكر الإسلامي متميزا، ولكنني كنت أقرأ في عيونه وفي حديثة معي أنني لم آخذ بنصيحته، وأن الاستعجال ظاهر في الندوة والمشروع! وعلمت أنهم في جامعة الإمام يعدون بأناة لندوة عالمية واسعة.

كان من نتائج ندوة المدينة إقرار مادة الأدب الإسلامي في كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية، وكنا فريق العمل والإعداد نشتعل حماسة، وقد أفادنا الدكتور الباشا بمعلومات قيمة استفدنا منها في وضع تفصيلات المنهج ومادة التدريس.

وما لبثت جهود الدكتور الباشا والعاملين معه على إعداد ندوة الأدب الإسلامي في جامعة الإمام أن أثمرت عام ١٤٠٥هـ، وعقدت ندوة واسعة فاقت ندوة الجامعة الإسلامية في عدد مدعويها، وسعة محاورها، وحسن تنظيمها، وأهمية نتائجها.

وكان الدكتور الباشا أباها الروحي، ومرجعها العلمي، ومخطط معظم توصياتها. وكان من بعض توصياتها إنشاء رابطة الأدب الإسلامي، وكان فريق متطوع من المؤمنين بهذا الأدب ورسالته يعمل بصمت، ولعدة سنوات على إنضاجها، وكان الدكتور الباشا أحد أركانه الأساسية.

ورغم محنة المرض الذي أرهقه في السنوات

الأخيرة من حياته، فإن عطاءه استمر في التوجيه والإرشاد والإشراف على الرسائل في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، وفي الغراس التي استوت على سوقها، وأخذت الثمار تنضج.

فقد أثمر مشروعه الذي جمع شعر الدعوة الإسلامية عبر العصور رسائل جامعية عدة في جامعة الإمام وفي غيرها، استمدت مادتها من أجزائها المطبوعة، وامتدت إلى النثر، وإلى العصر الحديث، وفتحت أبواب القصة والمسرحية، وسعدت بمناقشة عدد منها، بعضها في معيته -رحمه الله. وأشرفت على رسائل في الجامعة الإسلامية في الأدب الإسلامي، وهذه الرسائل جميعها في يقيني مدينة بشكل أو بآخر للجهود الضخمة التي بذلها الدكتور الباشا لنشر مفهوم الأدب الإسلامي، وتعزيز منهجه.

ولئن شاء الله سبحانه أن يرحل الدكتور الباشا إلى جنته وثمار جهوده تنضج واحدة بعد أخرى؛ فإن إخوانه الذين رافقوه في مرحلة التأسيس وتثبيت الغراس قد وفقهم الله تعالى لمواصلة الرحلة، ومواجهة العواصف التي نال الدكتور الباشا نصيبا منها، آذته في صحته، وفي عمله.

وتوالت البحوث المنهجية من جامعات في أنحاء العالمين العربي والإسلامي تعزز قضية الأدب الإسلامي، وترفد الساحة الثقافية بدراسات معمقة في التنظير والتطبيق، وتنشئ مكتبة متكاملة ومتخصصة.

وأحسب أن أي دارس منصف لحركة تنظير الأدب الإسلامي ومصطلحاته في عصرنا الحديث سيصل إلى نتيجة لا تخطئ الحقيقة والموضوعية؛ نتيجة تقرر أن الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا رائد متميز في موكب رواد الأدب الإسلامي.. رائد بمنهجه، ومشروعاته العلمية، ومؤلفاته، ورعايته لطلابه وتوجيههم، تتحقق فيه شروط الريادة وصفاتها، في الخطوات التي مشاها في أرض بكر، أورقت فيه الأدب الإسلامي، وفي القافلة الأولى التي قادها وسدد خطاها شبرا فشبرا. وفي المائدة المنهجية الواسعة العطاء التي استضافت الكثيرين ممن كتبوا عن شعر الدعوة الإسلامية عبر العصور، ثم عن نثرها في الخطابة والوصايا والحكم والأمثال. وعن الأدب الإسلامي في العصر الحديث شعرا وقصة ورواية ومسرحية.

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة حيث عقدت ندوة الأدب الإسلامي ١٤٠٢هـ

رحم الله هذا الرائد المتميز، وأجزل له المثوبة على ما بذله من جهد، وما أثمر جهده من عطاء، وجعل ذلك رحمات له في مثواه، ودرجات عليا في جنانه ■